مدينة وهران وأعلامها في الكتابات المغربية

أ.د حسن الصادقي*

مقدمة: تعد مدينة وهران عبر التاريخ حاضرة العلم والجهاد بأعلامها ومعالمها، استقطبت المحبين لها والطامعين فيها فعرفت كغيرها من المدن الإسلامية المتوسطية تقلبات سياسية واجتماعية وثقافية وفترات من السلم والحرب أثرت في المدينة وساكنتها بالسلب والإيجاب.

واشتهرت مدينة وهران نتيجة ذلك في الكتابات العربية والأجنبية، واعتنى المغاربة بتاريخ المدينة وأعلامها، ويشكل ذلك مظهرا من مظاهر التواصل بين الأقطار المغاربية وتعبر هاته الكتابات عن نظرة المغاربة إلى مدينة وهران وساكنتها وأعلامها الذين ساهموا في الفكر والتصوف والجهاد.

إذ عانت مدينة وهران المسلمة من ويلات الاحتلال الاسباني والفرنسي، واكتوت بنار الإطماع المسيحية وحب الانتقام من الحواضر الإسلامية المتوسطية بعد استسلام غرناطة ونقض المتعصبون الكاثوليك لعهودهم التي أعطوها للمسلمين في الديار الأندلسية، فقرروا تنصيرهم بالحديد والنار، وأقاموا محاكم التفتيش والحرق، وطردوا في الأخير من بقي على دين الإسلام. ولم يقف الاسبان والبرتغال عند هذا الحد بل شنوا حملات شرسة وبدون رحمة على ثغور الغرب الإسلامي في العدوة الإفريقية سواء في السواحل المتوسطية أو السواحل الأطلسية، مستغلين الانقسام والتناحر والتسابق على الحكم في الأقطار المغاربية. وكانت وهران من المدن التي سقطت في قبضة الاسبان كما كانت من بين المدن التي لقيت العناية من طرف العامة والخاصة لتحريرها.

وذاع صيت المدينة في مشارق الأرض ومغاربها نتيجة حدث الاحتلال وحدث التحرير وظهر ذلك في الكتابات المغاربية والمشرقية والأجنبية. كما عانت وهران من الاستعمار الفرنسي مرة أخرى.

*- أستاذ في التاريخ الحديث والمعاصر- معهد الدراسات الإفريقية- جامعة محمد الخامس-السويسي الرباط.

1- صدى احتلال وتحرير مدينة وهران في الكتابات المغاربية: اهتم الكتاب المعاصرون لحدثي الاحتلال والتحرير، أو الذين أتوا بعدهم بالتوثيق لذلك، وتركوا لنا نصوصا بعضها لا زال مخطوطا وبعضها منشورا. وجاءت هاته النصوص في كتب الحوليات التاريخية، و كتب الرحلات، والكتب الأدبية.

ويدل ذلك على رصد أخبار الحوادث التي تقع في أقطار الغرب الإسلامي بصفة خاصة بحكم الدين واللغة والجوار والمصير المشترك. لان ما يهب على المغرب الأوسط من نسمات عليلة أو عواصف هوجاء تصل بعد ذلك إلى المغرب الأقصى.

وسأقدم في هاته الورقات نماذج أولية لهاته النصوص التي رصدت الحدث في شقيه السلبي والإيجابي المتعلق بمدينة وهران:

- النص الأول من كتاب وصف افريقيا للحسن الوزان (ت 960/1552)[1]: ويقول: "وهران مدينة كبيرة فيها ستة آلاف كانون بناها الأفارقة الأقدمون على شاطئ البحر المتوسط، بعيدة بنحو مائة واربعين ميلا من تلمسان وبها من البنايات والمؤسسات ما تتميز به كل مدينة متحضرة. من مساجد ومدارس وملاجئ وحمامات وفنادق، محاطة بأسوار عالية جميلة يقع جزء من المدينة في السهل، والجزء الآخر في جبل شديد الارتفاع، وكان معظم سكانها من الصناع والحاكة، ويعيش الكثير من أهلها من مدخولهم، لكنها لم يسد فيها الرخاء، إذ لم يكن يؤكل فيها سوى خبز الشعير. ومهما يكن من أمر فإن أهلها ظرفاء كرماء يحبون الغرباء.

كانت وهران مهبط التجار القطلونيين والجنويين، وما زال بها الآن دار تسمى دار الجنويين لأنهم كانوا يقيمون بها. وكان الوهرانيون دائما أعداء لملك تلمسان، لم يقبلوا قط أي وال من ولاته، ما عدا أمينا للمال وقابضا يستلم مداخيل الميناء.

وكانوا ينتخبون رئيس مجلس ينظر في القضايا المدنية والجنائية، كما كان التجار فيما مضى يجهزون على الدوام سفنا شراعية وأخرى مسلحة يمارسون بها القرصنة، ويجتاحون سواحل قطلونية وجزر يابسة ومنورقة وميورقة، حتى أصبحت المدينة تزخر بالأسرى المسيحيين.

وقد أرسل فرنالد ملك اسبانيا أسطولا كبيرا إلى وهران لمحاربة أهلها وتخليص المسيحيين من مصيبة عظيمة تتكرر بدون انقطاع. فانهزم الأسطول بسبب أخطاء في العمل.

ثم أعاد الملك الكرة بعد شهور، فجمع بمساعدة بعض الأساقفة وكردينال اسبانيا أسطولا أهم من الأول، تمكن في يوم من الاستيلاء على المدينة، لأن السكان خرجوا يقاتلون بغير نظام

وتركوا المدينة خالية، فعلم الإسبان بذلك وأرسلوا قسما من جنودهم إلى الجانب الآخر من وهران، فلم يجدوا من خصومهم غير النساء وقد صعدن على الأسوار، فدخلوا المدينة بسهولة، بينما كانت المعركة على أشدها في الخارج، ثم غادروها فجأة وركبوا ظهور عدوهم.

ولما أخذ المغاربة يتراجعون نحو المدينة لصد العدو عنها، أبصروا الرايات المسيحية ترفرف على الأسوار، ووقعوا بين الفريقين الإسبانيين، فضيقوا عليهم الخناق حتى لم ينج منهم إلا القليل.

وهكذا استولى الإسبانيون على وهران عام 916 للهجرة.

كان الاحتلال يوم الجمعة- محرم 8/915 ماي1509 بخيانة يهودي من مهاجر الأندلس (تعليق المترجمان).

-النص الثاني للتمكروتي علي بن محمد الجزولي الدرعي (ت 1594/1003م) في كتابه الرحلة المسكية في السفارة التركية[2]: سفيرا لأحمد المنصور السعدي الى السلطان العثماني في الاستانة.

"واجتزنا على مدينة وهران وفيها النصارى دمرهم الله وأعادها للإسلام، قال ابن عبد ربه هي مدينة حصينة بناها محمد بن أبي عون وجماعة من الأندلسيين سنة 290هـ...، وبينه وبين تلمسان مرحلتان واجتزنا عليه في وسط النهار وهو في جون كبير داخل البحر ما بان لنا منه إلا الأبراج" ص 13-14.

2- قصائد شعرية قيلت في الحث على تحرير وهران: كان لحدث الاحتلال دوي في باقي الأقطار الإسلامية وكان له بالغ الأثر في نفوس العامة والخاصة خاصة في المغرب الأقصى الذي عانى بدوره من مرارة طعم الاحتلال، وتجلى ذلك في القصائد الشعرية التي جادت بها قرائح الأدباء قيلت في الحدث وتحث الأمة الإسلامية على فك وهران من الأسر ومن هاته القصائد:

* قصيدة للفقيه الثائر ابن أبي محلي أحمد ابن القاضي السجلماسي وهو أشهر من نار على علم لأنه كان أديبا وفقيها ثار ضد السلطة السعدية وسعى إلى الملك وهزم السلطان السعدي ودخل إلى مدينة مراكش ونصبه نفسه سلطانا وتوفى في إحدى المعارك عام 1613/1022 وقيل عنه أنه قام طيشا ومات كبشا وهو معروف بكتابه اصليت الخريت وفيه رسائله حول التبغ ومراسلاته مع علماء المشرق .يقول ابن أبي محلي:

يا معاشر الإســـلام في كل موطن وفي كل نـــاد ســـالف ومعاصر

يـــا سادة العربان مـــن آل هاشم وغيرهم بالله مـــا صبر صابـــر
يـــا معاشر الأتراك يـــا كل عالم وكل ولي حافـــظ للأوامـــر
أناشدكـــم بالله مـــا عذر جمعكم لدى الله في وهران لأمر الخنازر[3]

* قصيدة لأديب فاس ومفتيها عبد الواحد بن محمد الشريف البوعناني: نظمها بعد تحرير المولى إسماعيل العلوي لمدينة العرائش من يد الاسبان في شهر محرم عام 1101، ويحثه على فك وهران من محنتها[4]:

ووهران تنادي كـــل يـــوم متى يأتي الإمـــام متي يزور
مـــتى يأتي ويفتحها سريعـــا ويلحق أهلها منه ثبـــــور
فيهزمهم ويقتلهم و يســـبي وسيف الحـــق في يده ينور
أمـــولاي قـــم وانهض وشمر لأندلـــس أنت لهـــا الأمير
وجـــاهدهم وحاربهم وفرق جموعهـــم فربـــكم النصير
ولا يمنـــع بفضـــل الله منها كما قـــد قيل بـــر أو بحور
لسان الحـــال ينشد كل يوم ومعنى الحال تفهمه الصدور

3- فك أسر مدينة وهران: يظهر أن أولي الأمر قد أولوا العناية لتحرير وهران وهذا ما نستشفه من هاته النصوص:

النص الأول للزياني في الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا[5]: أديب ومؤرخ ورجل سياسة قام برحلات عدة إلى المشرق وبلاد الروم في عهد السلطان سليمان العلوي. (1796/1210)

"فقطعت جبل بني يزناتن لناحية البحر وقصدت مدينة وهران التي بها الباي محمد بن عثمان ولما اجتمعت به...، وأمر كاتبه الكبير أن يتوجه معي حتى يريني قصبة وهران وأبراجها ومدافعها ومخازنها لأنها فتحت على يده تلك السنة، فمضى بي وأوقفني على ذلك كله ورجعنا إلى منزله ...

وهذه وهران من بناء الروم قبل الإسلام ثم فتحت في الإسلام واستولى عليها بني يفرن ثم الأدارسة بعدهم ثم الشيعة ثم زناتة ثم صنهاجة ثم لمتونة ثم الموحدون ثم بنو عبد الواد ثم بنو مرين ثم الاصبنيول ثم فتحها الترك أيام السلطان سليمان العثماني ولا زالت بأيديهم".

النص الثاني ينتقل الزياني في رحلته إلى ذكر تحرير وهران[6] في رسالة مطولة عن الخليفة العثماني ومما جاء فيها: "ثم حصن ثغور المسلمين بالصقائل والأبراج وعمرها بالمدافع والمهارز على طبقات تحاكي الأدراج وملأ خزائن الثغور بالبارود والكور والبحب والسلاح من المكاحل والسيوف والأسنة والرماح وأكثر من الجواري المنشئات في البحر كالأعلام وشحنها بكل من عساكر الإسلام، للتضييق على أعداء الدين برا وبحرا، زاده الله عزا ونصرا، إلى أن صيرا أجناسهم تحت الغلبة والقهر، ووفدوا على أعتابه صاغرين من كل قطر يطلبون مهادنته على ما يطلب من الأموال، والكون عند أمره في الأقوال والأفعال، فوظف على كل جنس منهم ضريبة يؤديها في كل عام كالجزية، ولا يسرح أسراهم إلا بضعاف المسلمين في الفدية، وفي كل سنة يأتونها بالهدايا والوظائف، والتحف الغريبة واللطائف، أبقاه الله محفوظا، وبعين عنايته ملحوظا ثم صرف همته لجهاد مدينة وهران، وإخلائها من عبدة الصليب أهل الضلال والخسران، ووجه لها عساكره رجالا وركبانا، وأمدهم بالقبائل عجما وعربانا، ووجه معهم المدافع والمهارز وألة الحرب، وبكل ما ينفع للطعن والضرب.

ونزلت عليهم العسكر من كل جانب، وكلهم للشهادة طالب راغب، وحاربوهم حرب المهاجرين والأنصار، ووقع بالكفرة ما لم يقع بمصر من الأمصار، إلى أن صار البلد عليهم دكا، وحديث خلاصهم أفكا، فطلبوا الأمان لأنفسهم على أن يسلموا البلاد، ولا يحملون إلا نسائهم والأولاد، فأنعم لهم بذلك ووفى، وقرأ عليهم حسبي الله وكفى.

فما أعظم هذا الفتح الذي لم يحصل لملك من الملوك، وحصل به السرور للغني والصعلوك، وشاع بلاد الكفر والإسلام، وتحدث به أهل اليمن والعراق وخراسان ومصر والشام، ورفع له المسلمون أيديهم في المشرق والمغرب، يدعون له بالعز كل أعجمي ومعرب، فالله يطيل سعادته، ويديم مجادته.

ثم توجه نظره في فكاك أسري المسلمين من جميع ايالة الكفار، والبحث عنهم في القرى والأمصار، قاصدا بذلك وجه الله وابتغاء مرضاته، عملا بقول نبينا عليه من الله أفضل صلواته: "من فك أسيرا من أيدي الكفار، حرم الله جسده من النار"، وجازاه الله في الآخرة بالحور العين، وأسكنه في الغرف التي في أعلا العليين."

النص الثالث: يقول القادري في كتابه نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني في حوادث عام **1120**: "ورد الخبر إلى فاس بأن الترك فتحوا وهران"[7].

ونلاحظ من خلال هاته النماذج أن أصحاب هاته الأخبار كان بعضهم ممن شاهد المدينة عن بعد وبعضهم زار معالمها وبعضهم وصله خبر عنها،وحز في نفسه ما أصابها وصاغ ذلك شعرا أو نثرا وذلك أهون ما يمكن فعله تجاه مدينة وهران، ومعروف عن هؤلاء أنهم من الثقاة ومن أصحاب التآليف المعتبرة والموضوعية. تاركين لرجال الحرب والجهاد العمل على تحرير المدينة.

مصادر أخرى عن مدينة وهران:

- شرح أرجوزة الحلفاوي التلمساني في فتح وهران

لعبد الرحمن الجامعي الفاسي نزيل الجزائر والمتوفى بتونس.

مخطوط خ س14028، وقد قام الأستاذ الجيلالي سلطاني بقراءة للأرجوزة نشرها في المجلة الجزائرية للمخطوطات- جامعة وهران- العدد3-4 السنة 04-2005.

- التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية،.

لمحمد بن ميمون الزواوي الجزائري. كان حيا سنة 1122هـ/1711م.

وهو في سيرة الداي محمد بكداش خوجة والي الجزائر، ووصف معارك تحرير وهران عام 1707/1119. وقصائد التهنئة ومنها قصائد الجامعي عبد الرحمن الفاسي تحقيق محمد بن عبد الكريم، بيروت 1972/1392.

- طرس الأخبار بما جرى آخر الأربعين من القرن 13 للمسلمين مع الكفار.

للعربي المشرفي الغريسي نزيل فاس مخطوط الخزانة العامة المكتبة الوطنية بالرباط.رقم496 والخزانة الحسنية بالرباط رقم1476.

يتحدث فيه عن احتلال وهران (الفصل 3)

يقع في سبعة فصول وخاتمة:

- الفصل الأول في سبب ظهور هذا الجنس من الافرنج هو الفرنصيص دمره الله.
- الفصل الثاني في ذكر السنة التي خرج فيها للجزائر.
- الفصل الثالث في ذكر دخوله وهران ومن قاده لها حتى فرق بالتشتيت أهلها.

وتحدث في هذا الفصل عن استعدادات حسن باشا لمناصرة باشا الجزائر بعد وصول الخبر بالهجوم الفرنسي على مدينة الجزائر، وجمع القبائل المحاربة. وقال: "خرج الوكيل حسن باي

وبنا فساطيطه بواد اقليلات، فاتفق أهل دولته على المسير ليشدوا عضد الباشا الكبير فأمر القبائل بجعل الزار ويجمعون فرسانهم للتأهب والاستعداد".

لكن بلغه ان الروم انهزموا فسرح القبائل ودخل حصن وهران وبعد ذلك وصله خبر انهزام باشا الجزائر فتقاعس عن الحرب بعد مشورات سلبية.

وتمكنت فرنسا من الاستيلاء على مرسى وهران بالحيلة وبدون حرب في صفر 1246 وسفروا حسن باي إلى الاسكندرية في شهر جمادى الأولى سنة 1248. وبقيت وهران تحت الاحتلال إلى أن نال القطر الجزائري الاستقلال بفضل عزيمة أبنائه وجهادهم.

4- نصوص عن وهران في عهد الاحتلال الفرنسي:

- الرحلة الوزانية الممزوجة بالمناسك المالكية لأحمد بن العربي الوزاني ابن حسون. حيا بعد 1864/1280. وهي عن حجته عام 1269.

دخل عند إيابه الجزائر ووهران.

مخطوط الخزانة العامة المكتبة الوطنية ك 1012 (52 - 110) أول الرحلة فقط.

خ م ع ف: ع 349 (150 صفحة) وهي تامة.

- الرحلة الحبيبية الوهرانية لأحمد سكيرج الفاسي نزيل سطات ت 1944/1363.

دون فيها رحلته التي قام بها عام 1911/1329 إلى وهران ومستغانم وتلمسان وبلعباس.

طبعة حجرية فاسية د. ت 139 ص. وقد عرف بها الأستاذ محمد بن معمر.

- بعض أعلام وهران في الفكر والتصوف: أنجبت مدينة وهران شخصيات كان لها عطاؤها في الفكر والتصوف ولعبت دورا ايجابيا في التواصل بين الأقطار المغاربية وتركت بصماتها واضحة في البلاد التي زارتها أو استقرت بها وكان لها حظوة لدى الحكام ومن هاته الشخصيات:

ـ محمد بن عمر الهواري: وهو أشهرهم، وواسطة عقدهم، العالم الفقيه الصوفي الرحلة، أخذ عن شيوخ عدة منهم عبد الرحمن الوغليسي وأحمد بن ادريس.

ورحل بعد ذلك إلى المغرب وأخذ بمدينة فاس عن موسى العبدوسي والقباب، وسافر من فاس إلى المشرق للحج وزار دمشق وبيت المقدس وأخذ عن علماء القاهرة أمثال الحافظ العراقي.

وكان ابراهيم بن محمد التازي من أصحابه وتلامذته وخليفته في وهران[8] توفى الشيخ ابن عمر الهواري بوهران سنة 1439/843.

– أحمد بن محمد بن جيدة الوهراني: فقيه صوفي مالكي. أخذ عن الشيخ محمد بن يوسف السنوسي مقدمته الصغرى في العقائد لما قدم الشيخ على وهران وعن تلميذ السنوسي محمد بن موسى وعن الكفيف ابن مرزوق. وأخذ التصوف عن ابن تاغزوت وعن إبراهيم التازي عن الهواري. دخل مدينة فاس وأخذ عنه بفاس شيخنا أحمد المنجور وذكره في فهرسته.كما ذكر ابن القاضي.

تولى كرسي ابن غازي في مادة الحديث في القرويين ودرس الفقه والعقائد لكبار الطلبة.

توفي بمدينة فاس سنة 951 هـ.

ترجمته في دوحة الناشر، وفهرس المنجور، جذوة الاقتباس، درجة الحجال. لقط الفرائد.

– إبراهيم بن محمد التازي: نزيل وهران. أديب وصوفي. أخذ عن أحمد زروق الفاسي، ومحمد السنوسي التلمساني، والحافظ التنسي الجزائري، ومحمد بن عمر الهواري. رحل الى فاس الى وهران.

توفي عام 1461/866. قال عنه ابن عسكر أنه سلطان الأولياء ص. 67 ومن تلامذته محمد بن يجبش التازي.

– شقرون بن هبة الله الوهراني 1576/983

دخل مدينة فاس سنة 967. فعظمه سلطان المغرب وولاه الفتيا. وكان يحضر مجلسه أعيان الفقهاء والسلطان نفسه. خطب أولا بجامع الكتبيين من مراكش ثم خطب بجامع المنصور. توفي سنة 983. دوحة الناشر لابن عسكر ص 116، الحركة الفكرية ج 2 ص377

– محمد بن أحمد الوهراني: يقول عنه القادري: "ومنهم الفقيه أبو عبد الله محمد بن أحمد الوهراني، ناب في القضاء والخطابة مرات، وكانت وفاته في أوائل ربيع الثاني من سنة 1013 هكذا ورد في المطمح ولم يزد عليه"[9].

وهناك العديد من أبناء وهران الذين ساهموا عبر التاريخ في حركة التواصل الفكري والروحي بين المغربين الأوسط والأقصى وساهموا في استمرارية الحركة الثقافية في القطرين وأفادوا واستفادوا، وربطوا الماضي بالحاضر إلى جانب إخوانهم في المغرب.

وبعد فهذا غيض من فيض، وقليل من كثير مما قيل عن مدينة وهران وأعلامها مما ذكرته النصوص، ويبقى الكثير خاصة ما جاء في كتب التراجم المشرقية، وما ذكر عن مدينة وهران في الرحلات الأجنبية.

الهوامش:

1- ترجمة محمد حجي ومحمد الاخضر - الجزء2 ص 30-31 الطبعة الثانية بيروت 1983 .

2- طبعت بالاوفسيط باريس 1929عن مخطوطة خ ع الرباط، ص 13-14

3-"بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الاسبان كبني عامر" للمشرفي انظر شوقي الجمل المغرب العربي الكبير 1997

4- اليفرني نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي الطبعة الثانية ص308

5- صفحة 140-141 تحقيق عبد الكريم الفيلالي الرباط 1967/1387

6- نفس المصدر صفحة 376

7- الجزء 3 ص 204 تحقيق محمد حجي و أحمد التوفيق الرباط 1407-1986

8- التنبكتي أحمد بابا: نيل الابتهاج بتطريز الديباج ليبيا 1989

9- نشر المثاني م س ج1ص111

مصادر ومراجع:

وردت في المتن جملة من المصادر والمراجع:

ـــ العربي المشرفي: طرس الأخبار مخطوط المكتبة الوطنية 496 بالرباط والخزانة الحسنية 1476

ـــ عبد الرحمن الجامعي الفاسي: شرح أرجوزة الحلفاوي التلمساني مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط 14028

ـــ أحمد بن العربي الوزاني: الرحلة الوزانية الممزوجة بالمناسك المالكية، مخطوط المكتبة الوطنية بالرباط ك 1012.

ـــ أحمد سكيرج: الرحلة الحبيبية الوهرانية. طبعة حجرية فاس بدون تاريخ .

ـــ الحسن الوزان: وصف إفريقيا، ترجمة وتعليق محمد حجي ومحمد الاخضر.
الطبعة الثانية بيروت 1983

ـــ التمكروتي: النفحة المسكية في السفارة التركية، طبعة باريس 1929

ـــ القادري: نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني ، تحقيق محمد حجي و احمد التوفيق

ـــ ابو القاسم الزياني: الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا و بحرا، تحقيق عبد الكريم الفيلالي
الرباط 1967/1377.

ـــ احمد بابا التنبكتي: نيل الإبتهاج بتطريز الديباج، طرابلس 1989 .

ـــ محمد حجي: الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، الرباط 1977

ـــ ابن عسكر: دوحة الناشر، نشر محمد حجي الرباط

ـــ محمد بن ميمون الزواوي الجزائري: التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية. تحقيق محمد بن عبد الكريم، بيروت 1972/1392